خصائص العربية المعاصرة
(مظاهر حداثتها في المفردات والتراكيب)

د. محمد حسن عبد العزيز(*)

1- العربية المعاصرة

1-1- تعريف العربية المعاصرة

يستخدم بعض العرب المحدثين من الأدباء والعلماء والخطباء نمطا من العربية الفصحى يطلق عليه (العربية المعاصرة) وهو مصطلح شائع بين اللغويين وصناع المعاجم والمستشرقين، وتستخدم معه مصطلحات أخرى أقل منه شيوعا مثل (العربية الحديثة) و(العربية المشتركة) و (العربية الحديثة المكتوبة) و(العربية الأدبية الحديثة) وهي كلها تؤدي إلى ما يؤديه المصطلح السابق، وإن كان بعضها يبرز عنصراً آخر من عناصر تعريفه.

ومن جملة ما قيل عن (العربية المعاصرة) نستخلص التعريف الآتي:

" لغة فصحى، مكتوبة، تستخدم في التعليم وفي العلم وفي الأدب وفي الصحافة، وهي اللغة الرسمية المشتركة في العالم العربي اليوم".

ونفصل القول في تفسير هذا التعريف:

1- العربية المعاصرة فصحى لأنها تلتزم بقواعد الفصحى المعروفة في كتب النحو، وإن أصابها شيء من التغيير يقع غالباً في النواحي الصرفية والدلالية والأسلوبية.

2- وهي لغة مكتوبة في الأعم الأغلب، وأشكالها المنطوقة في الغالب مصدرها مكتوب.

3- وهي لغة التعليم في معاهده المتعددة، ولغة العلم بفروعه المختلفة، ولغة الأدب بفنونه المتنوعة، ولغة الدولة بمؤسساتها المحلية والدولية، وهي اللغة التي يترجم منها وإليها، وهي لغة الصحف وبعض المواد الإذاعية والمرئية كنشرات الأخبار والتعليق عليها...إلخ.

4- وهي اللغة المشتركة التي يعدها العرب لغتهم القومية، ومظهر شخصيتهم ورمز استقلالهم، ومن ثم فلها مكانة تفضل أي شكل لغوي آخر في المجتمع العربي.

5- اللغة العربية المعاصرة متأثرة باللغات الأجنبية من حيث إنها تقترض منها بعض الألفاظ فتعرّبها أو بعض المفاهيم فتترجمها، ومتأثرة أيضاً بالعامية لأن بينهما رصيداً عربيا مشتركاً من الألفاظ، ومن حيث إنها تقترض منها بعض الألفاظ الشائعة.

(*) أستاذ علم اللغة بجامعتي القاهرة والكويت

6- اللغة العربية المعاصرة شكل لغوي مختار يتعلمه العربي تعلماً، ويتفاوت مستعملوه في إتقانه تفاوتاً ظاهراً، ومن ثم فلا أحد يكتسبها في بيئته أو يستعملها في شؤون الحياة العامة.

1-2 العربية المعاصرة أهي مكتسبة أم متعلمة؟

علماء اللغة البنيويون يقررون أن اللغة نظام عرفي، ومن ثم يفترضون أن ثمة اتفاقا ضمنيا بين المتكلمين على استخدام اللغة بطريقة تكاد تكون متماثلة، ولهذا يفترضون أن لغة أحد أفراد الجماعة اللغوية يمكن أن تمثل العادات اللغوية للمتكلمين الآخرين في الجماعة نفسها.

أما تشومسكي وأتباعه من التوليديين فليس هدفهم وصف اللغة كما يفعل البنيويون بل يهدفون إلى تفسير وتحليل بنية اللغة معتمدين على حدس المتكلم ومعرفته الضمنية بقواعد لغته، ومن ثم فإنهم يعدون متكلم اللغة هو موضوع الدراسة اللغوية من حيث إنه قادر على إنتاج عدد لامتناه من الجمل. ولهذا فإنهم يرجعون إليه فيما يقبل أو ما لا يقبل من الاستعمالات اللغوية.

ومن البين أن من يكتسب لغة معينة يكون قادراً على استعمالها بيسر ودون تكلف بحيث لا يشعر بخصائصها أو بعي قواعدها، لأن الملكة اللغوية أو الكفاية لا شعورية، إنها تتيح للمتكلم الذي لا يعرف معرفة واعية قواعد لغته أن يلم بصورة كافية بنواحي استعمال لغته بحيث لا يقع في الأخطاء، وأن يحكم على متكلم آخر لنفس اللغة بأنه أخطأ أو أصاب، إنها تُعْزَى في النهاية إلى اللاوعي.

هذا هو الشأن عند دراسة اللغات الطبيعية المعاصرة، فما الموقف عند دراسة الفصحى المعاصرة.

1- ليس عند العرب من يتكلم هذه اللغة في شؤون الحياة اليومية، أما العامية منسوبة إلى قطر بعينه فهي اللغة التي يمكن أن يُقال إنها مكتسبة، وأن المتكلم بها يتكلمها بيسر ودون وعي أو شعور بقواعدها.

2- إن العربية المعاصرة بالشروط المحددة سابقاً لغة مختارة متعلمة ومن ثم يشعر مستعملها بقواعدها ويعي خصائصها، ومن دلائل ذلك ما يتعرض له مستعملها من اعتراضات النحاة واللغويين على أخطائه فيها، بل إنه يراقب نفسه في استعمالها ويُجري- بطريقة شعورية- تعديلات عليها، وربما ترك لغيره من المتخصصين في قواعدها أن يصحح استعمالاته.

3- هذا الوضع الفريد للعربية المعاصرة يضع اللغويين في موضع حرج، فهم بين أمرين:

أن يستعملوا المناهج والأساليب التي تستعمل في دراسة اللغات التي يمكن افتراض وجود متكلم- سامع بها، يمثل خصائصها ويعتمد على حدسه فيما يقبل ومالا يقبل من استعمالاتها.

وأن يستعملوا مناهج وأساليب خاصة لدراسة العربية المعاصرة تناسب خصائصها من حيث هي لغة فصحى مكتوبة، ووظائفها من حيث هي لغة للتعليم وللعلوم... إلخ. ومن حيث دورها في الربط بين

شعوب الأمة العربية وفي توحيد فكرها وثقافتها.

ومن هذه الناحية تبرز أهمية الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يستعمل هذه اللغة ويعتد باستعماله إياها في الإطار السابق أي من حيث علاقتها بالفصحى ومن حيث أداؤها لوظائفها الخاصة في الاتصال والتوصيل.

1-3 المعايير المستخدمة لتعيين الرواة المُحْدَثين المعتد بلغتهم.

استخلصت هذه المعايير مما انتهى إليه جمهرة المفكرين واللغويين في الاعتداد بلغة المحدثين، ومما قررته المجامع اللغوية والهيئات المعنية باللغة من قرارات بهذا الخصوص، هذا وإن تعدد المعايير ناتج عن طبيعة الفصحى المعاصرة من حيث هي لغة مختارة متعلمة ذات وظائف خاصة.

1- قواعد الفصحى القديمة:

لهذه القواعد سلطان عظيم على العربية المعاصرة لاسيما في النواحي الإعرابية، ولا خلاف بين الباحثين في وجوب الالتزام بهذه القواعد كما صورتها كتب النحو والصرف. بيد أن الباب مفتوح لبعض الاستعمالات التي تخالف القواعد إذا ما وجد له تخريج على لغة من لغات العرب أو على رأي نحوي أو لغير ذلك من التخريجات، وهذا يؤدي بنا إلى المعيار الثاني.

2- المجمع جهة الاختصاص في قبول أو رفض الاستعمالات المحدثة:

يتحفظ مجمع اللغة العربية في جواز القياس على ما لم يقسه العرب من الاستعمالات المحدثة، ويشترط أن يرجع إليه في تخريجها، ومن ثم إقرار استعمالها وتسجيلها في معاجمه، وقد أراد بذلك أن يحدد ضوابط للوضع حتى لا يذهب المحدثون فوضى فيه. وعلى الرغم من أن تلك الهيمنة محلّ اعتراض من بعض المجمعيين أنفسهم فإن الرأي يكاد يجتمع على أهميتها في إحداث التوازن المعقول بين عوامل المحافظة والتجديد.

3- المستوى الأدبي المتميز:

يعتد كثير من المفكرين واللغويين بلغة المحدثين، بيد أن دعواهم في الاعتداد بها تقتصر على آثار كبار الأدباء والشعراء، بشرط سلامة أسلوبهم وصحة عربيتهم، والمشكل في هذا المعيار هو تحديد الأسس التي يعرف بها كبار الكتاب وهل هي فنية أم لغوية؟ كما أنه لا فائدة من آثار هؤلاء مع شرط سلامة الأسلوب وصحة العربية، إذا فهم من ذلك تطبيق قواعد النحو والصرف بصرامة، ومع الاعتداد ببعض استعمالات هذه الطائفة، فإن المعجم الكبير لم يستشهد إلا بشعر البارودي وأحمد شوقي وحافظ مرات معدودات.

ونحن نؤكد أهمية الرجوع إلى تلك الطائفة في تأييد الاستعمالات الحديثة أو في تفسيرها بل وفي ابتداعها، لأن تأثير هؤلاء الكتاب في تسويغ تلك الاستعمالات أعمق بكثير من تأثير المتكلم العادي.

4- شيوع الاستعمال:

ينادى بعض اللغويين باستعمال هذا الأصل،

وعندهم أن الخطأ المشهور أولى من الصواب المهجور، وأن شيوع الاستعمال ناتج عن أن اللفظ المستعمل يحقق الغرض من استعماله في الفهم والإفهام، كما أنه من الصعوبة بمكان فرض استعمال معين أو انتزاع استعمال آخر، لأن استعمال الجمهور هو المحك في القبول والرفض.

بيد أن المشكل في هذا المعيار أن المجتمع اللغوي تتوزع فئاته أفقيا فيما يعرف باللهجات المحلية، ورأسياً فيما يعرف باللهجات الاجتماعية بحيث يتعذر الوصول إلى الاستعمال الشائع.

والمجمع يعتد ببعض الاستعمالات الشائعة على ألسنة الزراع والعمال والصناع وغيرهم من الفئات التي لا تخالف أصول العربية، ويعتد أحياناً ببعض الاستعمالات المخالفة التي يجد عنها مندوحة حين لا يتوافر في موضعها مرادف يؤدي معناها.

ومع ما وُجّه إلى هذا المعيار من نقد فلا ينبغي التقليل من أهميته لأنه يستند إلى قوة العرف العام، وهي قوة لا يمكن ردها إلا إذا وجد المجتمع عرفاً آخر يعتمد عليه الاستعمال الجديد.

5- اللغة العلمية لغة خاصة:

لا شك في أن يكون للعلماء حرية في البحث وفي الوضع، لأن ذلك حقيق بأن يطور العلم وينشره، ولهذا حرص المجمع على أن يتسامح في استعمال العلماء للغة، وكان يجيز لهم مالا يجيزه للشعراء والكتاب، أجاز لهم أن يُعربوا على غير أوزان العرب وأن ينحتوا، بل وأجاز لهم القياس على صيغ لم يكن العرب يقيسون عليها، بيد أن هذه الحرية يقابلها واجب الالتزام بالقواعد والأقيسة العامة التي لاخلاف عليها.

6- العرف اللغوي:

يكاد اللغويون المحدثون يتفقون على أن الصواب اللغوي هو الكلام المتفق مع ما يتطلبه العرف اللغوي للجماعة التي ينتمي إليها المتكلم، ويؤخذ من هذا ضمنا أن الخطأ هو ما يخالف هذا العرف الجماعي.

ولتوضيح أهمية هذا المعيار ينبغي توجيه النظر إلى أمرين:

الأول: أن القول بالصواب والخطإ يستلزم ضمنا وجود قاعدة من نوع خاص تفرضها الجماعة اللغوية، وليست القاعدة أمراً خاصاً بالسلوك اللغوي، فليس في نطق معين ما يجعله صواباً في ذاته أو خطأ في ذاته.

الثاني : السلوك اللغوي كالسلوك الاجتماعي، والقاعدة السلوكية- بشكل عام- هي قبول سلوك معين أو رفضه تبعا لما يقضي به العرف الجماعي.

وقد حددنا من قبل الجماعة التي ينسب إليها الوضع، وهي الجماعة التي تستعمل العربية المعاصرة في الأغراض المحددة التي تستعمل فيها. ولما كانت العربية المعاصرة تلتزم بقواعد العربية الفصحى أصبحت تلك القواعد عرفا ينبغي الالتزام به وعدم الخروج عليه، بيد أن هذه القواعد تسمح ببعض التغيير الذي يعرض لبنية الكلمة أو مدلولها، بيد أن هذا التغيير لا يعتد به إلا إذا حظي بموافقة الجماعة

لسبب من الأسباب التي عرضناها آنفا من شيوعه على الألسنة أو استعمال كبار الكتاب له... إلخ.

ونعود إلى القول بأن العربية المعاصرة لغة مختارة ومتعلمة لا مفروضة ولا مكتسبة، ومن ثم فإن تلك العوامل السابقة تؤثر فيها على نحو من الأنحاء، وهي عوامل تهدف في النهاية إلى إحداث نوع من التوازن المقصود بين دواعي المحافظة التي تتمثل في قواعد الفصحى، ودواعي التجديد التي تتمثل في بعض التغييرات التي يتطلبها الوفاء بحاجات التعبير.

2- اللغة العربية لغة للثقافة والعلوم

2-1 التأثير المتبادل بين الثقافة واللغة

أصبح من المقرر بين اللغويين وعلماء الاجتماع أن اللغة ظاهرة اجتماعية يفرضها المجتمع على أفراده، وأنها وسيلته الكبرى إلى صبغهم في الفكر والسلوك بصبغته، ولهذا كان اكتساب الفرد لغة مجتمع معين اكتسابا لأنماط الثقافة والسلوك المميز لهذا المجتمع، ونعني بالثقافة هنا أسلوب المجتمع في الحياة ونظرته إليها، وتتمثل في مورثات يتناقلها أفراده جيلا بعد جيل في قوانين وعادات وتقاليد وأنشطة.

واللغة لها ارتباط وثيق بالثقافة، فهي من ناحية تعكس ثقافة المجتمع الذي يستخدمها وتعبر عن مقاصده، ومن ثم تؤثر في سلوك الأفراد ونظرتهم إلى الحياة، وهي من ناحية أخرى أداة على ألسنة الأفراد وعلى أقلامهم قد فرضها المجتمع عليهم، ولكنهم مع ذلك يطوعونها بحسب حاجاتهم، ومن ثم قيل إن العلاقة بين اللغة والثقافة متبادلة، فاللغة تؤثر في المجتمع وثقافة المجتمع تؤثر في لغته.

والعرب اليوم يعدون العربية الفصحى لغتهم القومية، وهي مظهر شخصيتهم ورمز استقلالهم وتميزهم، وهي الأداة المشتركة التي تجمع الناس على ثقافة مشتركة وشعور واحد وهدف واحد. ولهذا كانت - كما أوضحنا سابقا- لغة الدولة بمؤسساتها المختلفة ولغة العلم والفن ولغة التعليم. واللغة هي الوسيلة التي يتخذها المجتمع بمؤسساته التعليمية والتربوية للدعوة إلى ثقافته المميزة وتوجيه السلوك إلى تقاليده وقيمه.

والعربي اليوم يعيش في إطار ثقافة مركبة يمتزج فيها التراث بالمعاصرة، ويقوم أسلوبه في الحياة ونظرته إلى الأمور على وجدان يمتزج فيه فكر الماضي بفكر الحاضر، وهذا التفاعل بين التراث والمعاصرة هو سمة المجتمع العربي الحديث، بل هو قدره ومستقبله.

2-2 لغة العلم محكومة بضوابط لا بقيود

إن حرية الفكر والبحث العلمي تستلزم- كما يقول المجمعي الدكتور إبراهيم مدكور- حرية التعبير عن هذا الفكر، فيكون العالم حرا في اختيار اللفظ الذي يؤدي المعنى المراد. وإن تاريخ العلم يؤكد أن العلماء لم يكشفوا الحقائق وحدها بل قدموا ما استطاعوا، من وسائل التعبير عنها. وهكذا سار تطور العلم وتطور مصطلحاته معا.

ومهما حاول العلماء أن يتخصصوا بلغتهم فهم مضطرون في كثير من الأحيان إلى أن يربطوها باللغة العامة، ومن ثم فإن الأنظار تتجه إلى متن هذه اللغة

و إلى موقف اللغويين في المحافظة عليه بما يقيد حتما تلك الحرية التي يتمسك بها العلماء، والدكتور مدكور يحسم هذه القضية بانحيازه إلى جانب الحرية العلمية في البحث والتعبير، ويقول: إن مبدأ الحرية العلمية يحملنا على أن نسلم بأن قداسة متن اللغة لا يصح أن تقف عثرة في سبيل البحث والتقدم العلمي.

والعالم – ما مدام قد تحرر– فله حقوق وعليه واجبات:

– له أن يستمد مصطلحاته من الفصحى بالطرق المعروفة للوضع، يشتق وينحت ويلجأ إلى المجاز، فيستعير الكلمة من دلالتها اللغوية العامة ليستعملها في دلالة علمية خاصة.

– وله أن يستمد من اللغة العامية إن كان أداؤها للمعنى أدق وأكمل، ويسوّغ هذا أن الصلة بين العامية والفصحى أكيدة، وأن قواميسنا لم تستوعب كل المفردات العربية، وأن الفارق بينهما قد يكون مجرد اللهجة ونطق الحروف.

– وله أن يستمد من لغة أجنبية فيعرّب إن دعا الأمر إلى التعريب، وقد عربت ألفاظ أعجمية في الجاهلية والإسلام. و لم ير العرب غضاضة في أن يضموها إلى ألفاظهم، و لم يكن بلازم آنذاك أن يكون التعريب على أبنية العرب.

– وعليه أن يحرص ما أمكن على أن يؤدي المعنى الواحد بلفظ واحد، لأن في تعدد الألفاظ إسرافا وارتباكا وبلبلة.

– وعليه أن يعرف لغته جيدا وما اشتملت عليه من مصطلحات قديمة وحديثة، ويتمكن منها كل التمكن، وبهذا تتوفر لديه الفرصة في اختيار أولى طريقة للوضع تناسب المعنى المراد تأديته.

ومع هذا وذاك فلا ينبغي أن تترك المصطلحات لهوى المصطلح وحده، بل لابد أن يقره عليها أهل العلم والمختصون، ومن هنا تبدو أهمية الرجوع إلى الجماعات والهيئات العلمية في تكوين المصطلحات واستقرارها.

2–3 اللغة العربية لغة عالمية للعلوم في العصر العباسي.

لم يكن للعرب قبل الإسلام علم بالمعنى الذي نعرفه اليوم، ولكنها، وبشجاعة نادرة وبعقل مفتوح، أنشأت صرحا علميا باذخا. لم تجد حرجا في أن تستخدم كل الوسائل الممكنة آنذاك، وأن تستعين بكل القادرين على العون، أسرعت إسراعا فترجمت علوم اليونان والهند والفرس، و لم تكتف بالنقل، بل استوعبت وأضافت وأبدعت في كل علوم هذا العصر، واحتفظت بهذا العلم لتنفع به الإنسانية طوال حقبة مديدة من الزمن ولتسلمه إلى ورثته من علماء عصرالنهضة الأوربية ليقوم عليه العلم الحديث.

وكان على العربية، لغة الصحراء والشعر، أن توفر لهذه العلوم وسائل التعبير الوافية، اجتهد العلماء والمترجمون أولا في أن يوجدوا لفظا عربيا معروفا، فإن أعياهم ذلك ابتدعوا له صيغا أو مشتقات جديدة، فإن أعياهم هذا أو ذاك عربوا.

وفي تأثير العرب في النهضة العلمية الحديثة يقول

(فيرنيه): إن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوربي مادة جديدة أدت إلى إثرائه بدرجة لا نظيرلها بفضل الترجمات العربية عن اليونان، وبفضل الإنتاج العلمي المستقل للمسلمين أنفسهم.

ويؤكد قيام العربية بدورها أن الذين ترجموا هذه العلوم من العربية إلى اللاتينية والعبرية لم يجدوا صعوبة تذكر، فقد كانوا يفهمونها فهما جيدا دون حاجة إلى معرفة عميقة بقواعد النحو المستخرجة أساسا من الشعر القديم، يقول(برجستراشر): إن اللغة العربية قدمت منذ البداية الأداة الكافية للتعبير العلمي الدقيق.

2-4 اللغة العربية لغة للعلوم في النهضة العربية الحديثة

رأى محمد علي أن السبيل القويم لنهضة مصر وبناء دولة حديثة هو الاتجاه إلى الغرب والانتفاع بنظمه ونقل علومه، واتخذ لذلك خطوات متعددة الأنحاء، فأنشئت المدارس العليا، مدرسة الطب 1827م والصيدلة 1830م والمهندسخانة 1834م...الخ. وقد سبقتها بعض المدارس الحربية كمدرسة أركان الحرب 1825 والطبجية 1831م...الخ و لم يكن معلمو هذه المدارس من الأجانب كافين لسداد حاجاتها، ومن ثم بدأ التفكير في ترجمة الكتب العلمية وإرسال البعثات إلى أوربا وإنشاء المدارس الخاصة بتعليم اللغات.

وكان الهدف إعداد جيل من الأساتذة والعلماء المصريين يحل محل الأساتذة والعلماء الأجانب، ويكون أداة صالحة لنقل علوم الغرب وفنونه إلى العربية.وقد اضطلعت مدرسة الألسن التي أنشئت 1835م بالنصيب الأوفى من الكتب المترجمة ومن المترجمين، ففي خمس عشرة سنة من عهد محمد علي وإلى حين إغلاقها في عهد عباس الأول 1849م خرّجت سبعين مترجما وقام أساتذتها وخريجوها بترجمة ما يقرب من ألف كتاب طبع أغلبها.

وقد أفادت العربية من الترجمة فائدتين: مباشرة وغير مباشرة، كانت الفائدة المباشرة نقل العلوم والمعارف والفنون المختلفة إليها، وما انبنى على ذلك من معرفة طرائق التفكير وأنماط الثقافة الأوربية العصرية، أما الفائدة غير المباشرة فكانت العناية بالقواميس الأجنبية والعربية، والاهتمام بالمصطلحات العلمية. وقد كان للمترجمين فضل عظيم في تطويع العربية لمطالب هذه العلوم والفنون وفي إكسابها صبغة علمية وبتخليصها من قيود الصنعة والتكلف.

وقرب نهاية القرن التاسع عشر أغلقت مدرسة الألسن وأهمل إيفاد البعثات وألغي التعليم المجاني، وقلت العناية باللغة العربية، وزاد الاهتمام بالإنجليزية، وظهرت آثار تلك السياسة واضحة في مدرسة الطب، إذ اشترط على من يريد الالتحاق بها إجادة الإنجليزية وكان معظم أساتذتها من الإنجليز، وكانت المحاضرات بالإنجليزية دون سواها. وكان لهذه الخطوة الأخيرة آثارها السيئة في مستقبل اللغة العربية، فقد نُحّيت العربية حتى لا تكون لغة للعلوم، وأصبحت الإنجليزية حتى اليوم هي لغة التعليم الطبي والهندسي في مصر، وبذلك قضى على أعظم المحاولات في

تعريب التعليم العالي في مصر الحديثة، وأصبحت في عالم النسيان تلك الآثار العلمية التي ترجمها أو ألفها بالعربية أساتذة العلوم بالمدارس العليا وخريجو مدرسة الألسن.

3- المؤثرات

تتعرض الفصحى المعاصرة لعدد من المؤثرات التي تكسبها صفاتها النطقية والتركيبية، فهي من ناحية تخضع- بعامة- لقواعد الفصحى القديمة التي نتعلمها في معاهد العلم المختلفة، ومن ناحية أخرى تتأثر في أصواتها خاصة لتأثير اللهجات المحلية، كما أن اللغات الأجنبية - من خلال الترجمة- تؤثر في طريقة بناء الجملة وفي بعض مناحي التعبير.

3-1 الفصحى والعامية

تأثير العامية في بنية الجملة في الفصحى مختلف في تقديره، ولست من القائلين بتأثيرها البالغ في هذا الخصوص، ودليلي على ما أقول:

- أن الفصحى - وهي لغة مكتوبة غالبا- تعد معبّرا عن الوحدة السياسية للعالم العربي بل هي أيضاً المقوم الأساسي للوحدة في كل قطر. وهي تحظى بمكانة خاصة أقرب إلى التقديس عند الناس جميعاً. فهي لغة الدولة والعلوم والتعليم، وهي اللغة التي نعلمها لمن يريد تعلمها من الأجانب، ومن ثم فإننا نعدها قرينا للغات الأخرى ومعبرا عن شخصية الأمة. أما العامية وهي لغة منطوقة فحسب- فتختلف باختلاف الأقطار بل تختلف باختلاف المناطق في القطر الواحد- وهي ترتبط بالأمية وبأداء الحاجات العملية البسيطة، ومن ثم فإنها لا تمثل أداة كافية للفكر الراقي وللعلم.

- الفصحى لغة مُعْرَبة، تعتمد على العلامة في بيان مواقع الكلمات وفي تحديد وظائفها، أما العامية فترتيب الكلمات فيها يقوم بهذا الدور على حين يمثل الترتيب دورا ثانويا في الفصحى، ولهذا نعد الذي يخطيء في الإعراب- وإن استخدم المفردات الفصيحة- لا يتكلم بالفصحى، وكذا الذي يسكن أواخر الكلمات في الوصل.

المعول عليه في القول بتأثير لغة في لغة أو لهجة من حيث البنية والتركيب أن ينفذ إلى بناء اللغة أو تركيبها بانتظام واطراد، وإلا عد تأثيرا معجميا أشبه ما يكون بالكلمة المقترضة أو بالعبارة السائرة مسير المثل، وهذا هو المجال الغالب الذي يقع فيه تأثير العامية.

3-2 الفصحى واللغات الأجنبية

طرأت على العالم العربي منذ بداية اتصاله بالحضارة الغربية تغيرات كثيرة شملت عديدا من أنماط الحياة. إن ادخال النظم الغربية في الحكم والإدارة واستخدام الوسائل الحديثة في الزراعة والصناعة، وإقامة المدارس والمعاهد العلمية على النمط الأوربي، وإرسال البعثات العلمية وإنشاء الصحف والمطابع... الخ كان له تأثيره البالغ على العقل العربي من غير شك. وكان على العربية أن تواجه هذه التغيرات الجديدة وأن تساير مطالب التعبير عنها، وكان هذا يتطلب منها هي نفسها أن تتغير وتنفض عنها غبار

ماضٍ متخلفٍ استمر قرونا.

وقد كانت العربية تواجه هذا التحدي الجديد، وأمرها يختلف كثيرا عما كانت عليه في تاريخها الطويل حين استوعبت حضارة الفرس والروم وبقيت مع ذلك عربية خالصة لم تشبها شائبة، أما اليوم فإنها تواجه حضارة غربية، عليها أن تتصدى دون أن يدعمها سلطان من سيادة أهلها كما حدث من قبل، فالعرب اليوم غير العرب بالأمس البعيد، إنهم ينظرون إلى الحضارة الغربية نظرات متباينة يمتزج فيها الإعجاب بالنفور والإكبار بالاستهانة والإحباط بالتحدي.

إن تطور اللغة بمعزل عن أي تأثير خارجي يعد أمرا مثاليا لا يكاد يتحقق في أية لغة، وتاريخ اللغات يشهد بخلافه، بل يؤكد أن تأثير لغة أخرى كثيرا ما يؤدي دورا هاما في تطورها.

وليست اللغة العربية في ذلك بدعا بين اللغات، فقد تطورت تطوراً كبيراً حين ترجمت إليها علوم اليونان والفرس وحين أصبحت لغة عالمية لهذه العلوم، بل أصبحت لغة للحضارة السائدة آنذاك.

وعلماء اللغة يرون أن معجم اللغة هو أول جانب يتأثر باختلاطها بغيرها نتيجة اقتراضها الكلمات والمصطلحات من هذه اللغات، بيد أن اقتراض الكلمات واستيعابها- مهما اشتد أثره- لا يحدث تغيرات ذات شأن في بنية اللغة.

وهؤلاء اللغويون يشيرون إلى نوع آخر من الاقتراض يستلزم وجود توغل داخلي بين النظامين اللغويين، ومن هذا النوع ما يؤثر في الطريقة التي تبنى بها الجمل وهذا النوع الذي يتعلق باقتراض الأساليب، وما يترتب عليه من تأثير في النظام اللغوي يستغرق وقتا طويلا، وإذا ما وقع كان علامة للانتصار الثقافي لإحدى اللغتين على الأخرى.

هذا الجانب من التطور اللغوي يمكن توزيع أشكاله في نمطين، أولهما ليس له تأثير في نظام الجملة، والثاني له تأثير متفاوت في نظامها.

وقد كتب عن النمط الأول المجمعي الشيخ عبد القادر المغربي بعنوان (تعريب الأساليب)، وكان يريد به إدخال العرب في أساليبها أسلوبا أعجميا، وهو يرى أنه قديم في العربية بيد أنه نشط في العهد الإسلامي ثم تكاثر ونما في العصر العباسي حتى نهضتنا الحديثة فرجح ميزانه وطغى طوفانه.ولا يرى المغربي خطرا على اللغة منه، إذ ليس في هذه الأساليب كلمة أعجمية ولا تركيب أعجمي، وإنما هي كلمات عربية محضة ركبت تركيبا عربيا محضا، لكنها تفيد معنى لم يسبق لأهل اللسان أن أفادوه بتلك الكلمات، فقولهم (طلب يد فلانة) كلمات عربية مركبة تركيبا عربيا، لكننا إذا خاطبنا العربي القح بها لم يفهم منها المغزى الأعجمي، وهو خطبة الفتاة، وإنما هو اعتاد أن يفهم خطبتها بمثل (خطب فلان فلانه).

بيد أن مقدار التوغل ربما يتجاوز هذا الحد المتسامح فيه فيؤدي إلى مخالفة ما لنظام الجملة العربية في ترتيب مفرداتها أو أدواتها أو في خصائص

تركيبها. وقد يتسامح كبار الكتاب والعلماء والصحافيون- لسبب أو لآخر- في استعمالها، وقد يجد المجمع لها مسوغا وفقا لمعاييره التي يعتد بها في قبول الاستعمالات المحدثة. ومن أمثلة ذلك:

- يأتي الفعل (لعب) في الفصحى لازما فيقال: لعب محمد أو متعديا بالباء فيقال: لعب محمد بالكرة، ولكنه يجيء في فصحى اليوم متعديا بنفسه فيقال: لعب الكرة، ولعب دورا هاما. ولعل هذا يذكرنا بقولهم في الإنجليزية (He played an important part) وقد سوغ المجمع هذا الاستعمال، واحتج لذلك في (كتاب الألفاظ والأساليب ج2 ص94).

بيد أن المحدثين ربما يقودهم الأسلوب الأجنبي إلى ما يخالف النظم العربي مخالفة مرفوضة لا مسوغ لها. وعلى سبيل المثال:

- يكثر في الكتابات المحدثة قولهم (كان الشاعر ليعبر أصدق تعبير) قياسا على القول الفصيح (إن الشاعر ليعبر أصدق التعبير) فيلتبس الأمر، لأن القارئ لا يعلم أهي لام التوكيد التي تجيء بعد (إنْ) أم لام الجحود التي تجيء بعد كون ماض منفي نحو قوله تعالى (وماكان الله ليضيع إيمانكم)؟

- ويكثر أيضا قولهم (بمقدار صدق تعبيره بمقدار قوة تأثيره) وليس لـ (بمقدار) الثانية موضع ولا مسوغ إلا التأثر غير الواعي بالأسلوب الأجنبي.

3-3 التراث العربي

واكبت نهضة مصر الحديثة في احتذاء النظم الغربية والانتفاع بالعلوم الحديثة وما انبنى عليهما من تأثيرات أجنبية في اللغة العربية نهضة أخرى في إحياء التراث العربي والإسلامي والاعتصام بهما في مواجهة الغرب، وقد انبنى على ذلك آثار حميدة في اللغة العربية. وكان لمطبعة بولاق 1822م قصب السبق في نشر أمهات هذا التراث مثل لسان العرب لابن منظور والمخصص لابن سيده وخزانة الأدب للبغدادي والأغاني للأصفهاني . الخ. كما كان لإنشاء الجمعيات العلمية أثر لا يقل عن إنشاء المطابع وانتشار الصحف، وكان لكثير منها مطابع تقوم بنشر التراث مثل جمعية المعارف 1868 التي نشرت تاج العروس والبيان والتبيين وأسد الغابة... ألخ.

وفي هذه الحركة يقول (فك) : قد أدت كثرة الألفاظ الدخيلة من اللغات الأوروبية إلى قيام حركة مضادة تدعو إلى استحضار الماضي العظيم وإحياء تليد الحضارة والثقافة من التراث القديم، وقد أعلنت تلك الحركة عن نفسها ببعث لغوي جديد، فطبع منذ ذلك العهد مالا يحصى من كتب الأدب العربي في جميع العصور بالقاهرة وغيرها، وأدى الاشتغال بالآثار الأدبية من مخلفات العصور الغابرة إلى بعث حركة (التقنية اللغوية) مرة أخرى. و لم يقف الأمر عند نشر المؤلفات الكبيرة في النحو العربي وما إليه من المعاجم العديدة الأجزاء، بل اشتدت العناية أيضاً بالبحث في مسائل الاستعمال اللغوي وصواب التعبير، وقد استعيض فعلا عن كثير من الكلمات الأجنبية بألفاظ عربية حديثة، ومن أعمال المجمعين العلميين في القاهرة ودمشق إيجاد ألفاظ مناسبة للعدد

الوفير من المدلولات لاسيما في دائرة الشؤون الهندسية والآلية والطبية. الخ. وغيرها مما جلبته الحضارة الغربية الحديثة. وهذا الكفاح في وجه (الغريب اللغوي) يدور في الأعم الأغلب حول مشكلة استعمال الكلمة، واستخدام المادة اللغوية المولدة وتيسير النقل بالمجاز والوضع.

4- مظاهر تحديث العربية الفصحى

4-1 في مجال المفردات

تغلغلت الثقافة الغربية في كثير من مجالات الحياة العربية كما تغلغت من قبل وسائل الحضارة الغربية ومظاهرها في كل مكان وكل بيت، بل ظهر ذلك أيضاً في الأدب العربي الذي يحاكي- في كثير من أشكاله- الأدب الغربي كالقصة والمسرحية، وفي مضمونه الفكري أيضاً وهذا أمر واضح لا تنكر آثاره.

ولقد كان هذا التغلغل أشبه ما يكون بالهجوم الكاسح الشامل، وفيه يقول (ستتكيفتش): إن هجوم الحضارة الغربية المتطورة والمتعددة الجوانب لم يترك للعرب فرصة حتى تكون عملية الاستيعاب بطيئة وطبيعية، إن التحدي الشامل كان ينبغي أن يقابل برد فعل مباشر، وكانت العربية لحسن الحظ بثرائها المعجمي وبمرونتها الصرفية مهيأة لمجابهة هذا التحدي بطرق متنوعة واعدة.

إن حركة تحديث العربية الفصحى التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر، وما تزال قائمة حتى اليوم نهض بها اللغويون والعلماء والأدباء والصحافيون، وحين أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة وضع جهود رواد التحديث في اعتباره واستخلص من منجزاتهم مبادئ عامة تحافظ على التوازن المطلوب بين دواعي المحافظة على الفصحى ودواعي التعبير المحدث.

اعتمد المجمع مبادئ ثلاثة لتنمية ثروة العربية من المفردات لتكون وافية بمطالب الثقافة والعلم.

أ- الاشتقاق من جذور لغوية موجودة.

ب-إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم من خلال (الوضع بالمجاز) أو (غريب اللغة).

ج- صياغة مفردات جديدة بوساطة ما يعرف بالاشتقاق المعنوي أو الاشتقاق بالترجمة.

وهذه أمثلة موضحة لهذه المبادئ:

المبدأ الأول: الاشتقاق من جذور موجودة

أولا : الأسماء:

(فعالة) (للدلالة على الحرفة أو نوع النشاط) كطباعة وسفارة وجراحة.

(فَعَلان) (للدلالة على تقلب واضطراب) كموجان وسيلان وطيران.

(فُعال) (للدلالة على المرض) كزكام وسعال ونكاف.

(فعّال) (للدلالة على الحرفة أو ملازمة الشيء) كجراح وطيار، وسواق.

(مِفْعَل) كمجهر مصعد.

(مِفْعَلة) كمروحة.

(مِفْعال) : كمذياع

(فَعّالة) كنفاثة وحراقة.

(فاعول) كحاسوب

(مَفْعَل) كمسرح ومجمع

(مفعل) كموقف

(فَعول) اسما لما يتعاطى من دواء ونحوه: كسفوف، ذرور.

(فُعْلَة) اسما للطائفة المجتمعة من الشيء، ولما يتوسط الشئ ، ولموضع الفعل، وللشيء القليل، كالحزمة، الشعبة، الوصلة ، البقعة، والثلمة، والغرفة والكثبة... الخ.

ثانيا: الأفعال

(فَعَّل) صَوَّت (أبان عن رأيه) وحلَّل (رجع الشيء إلى عناصره).

(فاعل) هاتف (كلم شخصا بالهاتف) وواعد (ضرب موعدا).

(أفعل) أضرب (انصرف عن العمل حتى تجاب المطالب)، أخطره بكذا (أخبره به).

(تفعَّل) تحمس للأمر (اشتدت رغبته فيه ودعوة الناس إليه) تسمَّر (ثبت في مكانه).

(تفاعل) تضامن وتماسك وتكافل (المشاركة) ترامق (نظر كل منهما إلى الآخر).

(تفاعل) تعاطى، تساقط، تكاثف وتزايد (للتكرار والموالاة، أو لوقوع الفعل في مهلة أو تدرج).

(انفعل)انسحب(رحل عن) انسجم، (اتسق وانتظم)

(افتعل) ابتكر (ابتدع الشيء غير مسبوق إليه) انتحر (قتل نفسه).

(استفعل)استعمر (فرض على المكان سيادته واستغله).

استقال (طلب إعفاءه من عمله).

و لم يكن اجتهاد العلماء والأدباء والصحافيين موجها فحسب إلى الاشتقاق من الجذور المستعملة، بل أحيوا بعض الصيغ المهجورة واشتقوا منها ونسبوا إليها بعض المفاهيم العلمية ومن ذلك:

(فعلن) علمن (جرد العلم من صفته الدينية،عَضْوَن (جعل الشيء عضوا) عَقْلَن (جعل الشيء عقلانيا..) الخ.

(فَوْعَل) حَوْسَب (استخدم الحاسوب أو الكمبيوتر)

عَوْلَمَ (جعل الشيء عالميا).

هذا و لم يكن دور المجمع مقتصرا على قبول هذه المفردات وتسجيلها في معجماته فحسب بل أراد أن يتيح لكل محتاج أداة طيعة يولد بها ماشاء من الألفاظ، لقد أصبح الاشتقاق في أعمال المجمع مبدأ توليديا لا معياريا.

نظر المجمع في كثير من القواعد والأقيسة التي صاغها النحاة فترخص في كثير منها، وأباح القياس فيما أصله السماع، وسعى إلى إباحة بعض ما منعه النحاة، وتوسيع ماضيقوه، وكان هدفه من ذلك تنمية العربية بحيث تكون وافية بمطالب العلوم والفنون وشؤون المعاش.

المبدأ الثاني: إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم.

أ- الوضع بالمجاز

وأمثلته كثيرة تكاد لا تنحصر مثل: أدب،

وجريدة، وبيئة، وقطار، وملحمة، وبسيط الخ.

وقد توسع المجمع في استعمال هذا المبدأ ما دامت الكلمات المولدة به جارية على قواعد الصياغة العربية، واتخذ قرارات نافعة في تيسير الوضع ومنها على سبيل التمثيل: السماع من المحدثين وإطلاق السماع من قيود الزمان والمكان، وجواز التوليد فيما جرى على أقيسة العرب من مجاز واشتقاق..الخ.

ب- غريب اللغة

وأمثلته قليلة، وما استعمل منها أقل، مثل : صَرْح (Skyscroper) ودراجة (Bicycle).

وقد لجأ بعض المجمعيين إلى هذا المبدأ (ب)في صياغة المصطلح العلمي وآثروا إحياء بعض الألفاظ المهجورة لتعبر عن مفاهيم علمية جديدة، وقد كان في اعتبارهم آنذاك، صنيع العلماء الغربيين بالألفاظ اليونانية واللاتينية لبناء منظومة المصطلحات الخاصة بالعلوم.

فقد اقترح المجمعي الشيخ أحمد الإسكندري ألفاظا عربية مهجورة مثل:

المصدئ والقلاّء والشذام... الخ ليشير بها إلى العناصر الكيميائية المشهورة، بيد أن محاولته لم تحقق نجاحا يذكر.

المبدأ الثالث: الاشتقاق المعنوي (الاشتقاق بالترجمة).

وقد نتج عن استخدام هذا المبدأ ما لا ينحصر من المفردات الجديدة التي هي في الغالب إعادة صياغة لمفردات أجنبية.

إن حركة الترجمة المكثفة في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين وانتشار الصحف أترعتا العربية ولا تزالان بطوفان من المفردات أو العبارات التي صيغت على عجل وهي في الغالب مرادفة لمفاهيم منقولة عن الغرب، ولا تخلو صفحة من كتاب ولا من جريدة من عشرات من هذه المفردات أو العبارات، وهذه أمثلة فحسب في فقرة واحدة من مقال نقدي في إحدى الصحف: مشاكلة الواقع، الرؤية الشعرية، تكثيف التعبير... الخ.

4-2 في مجال الجملة

ليس الغرض من هذه الفقرات عرض التطورات الأسلوبية التي ظهرت في العربية المعاصرة ومصادرها والتي أكسبتها مرونة ظاهرة ومواءمة لمتطلبات التعبير العصري عن الثقافة والعلوم، بل الغرض فحسب عرض نماذج لها تحدد مجالها وأنماطها الأشيع.

وثمة دراسات حديثة منهجية في هذا الشأن من أهمها:رسالتي للماجستير عن (الخصائص التركيبية للجملة في لغة الصحافة المعاصرة)1975،ورسالتي للدكتوراة عن (الربط بين التراكيب في العربية المعاصرة)1978،وكتاب (ستتكيفتش) الذي ترجمته بعنوان(العربية الفصحى الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب، 1985). وأعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة(كتاب في أصول اللغة ج1،1969، ج2 1975 وج3، 1983)و(كتاب الألفاظ والأساليب ج1،1977،ج2، 1985)ومع ذلك فما زال تاريخ العربية المعاصرة حقلا لم يستغل كما ينبغي حتى اليوم.

وسوف يرى القارئ أنني لم أعرض لظواهر الإعراب، واكتفيت ببعض ظواهر التركيب من حيث التقديم والتأخير والفصل والوصل، والحذف، والمطابقة.. الخ لأمرين أحدهما أن العربية المعاصرة فصحى مُعْرَبة، ولا يزال المجتمع اللغوي يعد مخالفة الإعراب خطأ ينبغي التحرز منه، والثاني أن التغيرات التي لحقت العربية المعاصرة تكاد تتركز في ظواهر التركيب السالفة.

وثمة طرق متعددة لتصنيف هذه الظواهر، بحسب تأثيرها في بنية التركيب العربي أو عدم تأثيرها، وبحسب وفائها بالمراد أو بعبارة أخرى ألها مرادف عربي قديم ملائم أم لا؟. وبحسب مصدرها، أهي ناتجة عن تأثير أجنبي أم لا ؟. وهذه كلها تصنيفات نافعة، ولكنها توزع المادة توزيعا غير منتظم، ومن ثم آثرت تَصْنيفا شكليا يجمعها في صنفين، الأول: ما يلحق الجملة الصغرى أو النواة التي تتألف من مسند إليه ومسند وتكملة، والثاني : ما يلحق الجملة الكبرى المؤلفة من جملتين صغريين. وفي أثناء عرض الأمثلة نقدم المعلومات التي تهتم بها التصنيفات السابقة، على أن اعتبارات التصنيف قائمة عندي على تقديري الخاص، إذ كثير منها يختلف صنفه وفقا لاعتبار أو آخر، ولا تتحمل هذه الأوراق تفصيل القول في معتقدات هذا التقدير.

3-2-1 ظواهر الجملة الصغرى

أ- اقتران الأسماء

* يشيع في مُحْدَث الاستعمال أسماء يقترن بعضها ببعض على نحو غير معروف في الفصحى نحو (قطار القاهرة- الإسكندرية، ومشكلة الجزائر- المغرب) وهو أسلوب شائع أيضاً في المصطلحات العلمية، فالاسم الأول يقترن بالثاني وكأنهما كلمة واحدة مركبة، وهو أسلوب وافد من اللغات الأجنبية. وقد جوزه المجمع على تقدير حرف عطف أو على أن الاسمين المقترنين متضايفان على معنى اللام أو إلى (في أصول اللغة ج3 ص161).

** وقريب مما سبق قولهم (صاروخ أرض أرض، أو جو أرض) وهو أسلوب من الاقتران وافد من اللغات الأجنبية(earth to earth, air to earth)وإن كان يشبه التركيب المزجي في قول العرب: صباح مساء، وحيص بيص. الخ ولهذا يخفى وجه ضبطه أو تخريجه، وقد درسه المجمع وأجاز استعماله على الإضافة، (كتاب الألفاظ والأساليب ج2 ص66).

ب- المطابقة بين الصفة والموصوف

* الأصل أن تجئ تاء التأنيث لتمييز المؤنث من المذكر نحو: مسلمة ومسلم، على أن النحاة يُخرجون من هذا الأصل صيغا خاصة لا تأتي فيها التاء فارقة بين المؤنث والمذكر، وهي (فعول) فيقال رجل صبور وامرأة صبور، وفعيل: رجل قتيل وامرأة قتيل، ومفعيل كرجل مسكين وامرأة مسكين، و(مفعال) كرجل مهذار.. الخ فإن جاء شيء من ذلك بالتاء عده بعضهم شاذا، وعده بعضهم على غير الغالب.

والعربية المعاصرة تميل إلى استخدام التاء في التفريق طردا للباب على وتيرة واحدة ورعاية للأصل، فيقال

رجل صبور وامرأة صبورة... الخ. وقد أجاز المجمع إلحاق التاء بهذه الأوزان رعاية لما شاع، ورعاية للأصل. (في أصول اللغة ج3 ص50-56).

** كما يشيع في العربية المعاصرة تأنيث (فَعْلان) بالتاء فيقال : سكرانة ومن ثم يجمع جمع مؤنث فيقال : سكرانات، والنحاة يوجبون تأنيثه على (فعلى) نحو سكرى ويجمعونه على سكارى، وقد أجاز المجمع هذا الاستعمال رعاية لشيوعه ولأن له أصلا في العربية.(في أصول اللغة ج1، ص80).

*** من أعقد مسائل النحو على الناشئة والمعلمين مسائل اسم التفضيل وبخاصة ما يتصل بمطابقته لموصوفه، ومن أكثرها وعورة وأحوجها إلى التعبيد والتيسير مسألة التفضيل المقترن بأل، والنحاة يرون أنه يجب أن يطابق موصوفه في الإفراد والتذكير وغيرهما.

أما في العربية المعاصرة فيقولون: هي الأذكى والأقوى والأظرف والأشرف ويقولون في الجمع: هن الأذكى والأجمل والأظرف.. الخ فلا يطابقون في شئ من هذا، ويجدون صعوبة في المطابقة التي تفرض عليهم أن يقولوا الذكيا والقويا والجملى.. وأن يقولوا في الجمع مؤنثا: الذكيات والقويات والجمليات.. وفي جواز المطابقة وعدمها تيسير ومراعاة للذوق لا سيما فيما يسمع. وقد وافق المجمع على هذا الاستعمال (الوضع اللغوي، للمؤلف ص 212-214).

ج- الفصل بين المتضامين

* يشيع في الفصحى المعاصرة الفصل بلا النافية فيقال (كان عملا لا أخلاقيا) و(هذا تصرف لا شعوري) و(يتحلى بصبر لانهائي) فلا هنا مقحمة بين الموصوف والصفة، وهي غير عاملة، ومن ثم فما بعدها يعرب بحسب ماقبلها، وهو استعمال محدث وإن كان يمكن رجعه إلى أمثلة قديمة، وقد أجاز المجمع استعماله. (في أصول اللغة ج2، ص144) و (الوضع اللغوي في الفصحى المعاصرة للمؤلف ص176-183).

** ويشيع كذلك الفصل بربما، والنحاة يقررون أن (رب) إذا زيدت (ما) بعدها فالغالب أن تكفها عن العمل وأن تهيئها للدخول على الجملة الفعلية، ولكنها تجئ في العربية المعاصرة في نحو (لو نجح لاستطاع ربما تخفيف الأمر عليها) و (كانت المباحثات صعبة وربما مستحيلة).. وهي في هذا تخالف المعروف في القديم بدخولها على مفرد لا جملة وأثر الترجمة في الأسلوب واضحة، فهو ترجمة لجملة إنجليزية تجيء فيها (perhaps)أو ما يماثلها، وهي في تقديري مقحمة، وما بعدها يتعلق إعرابيا بما قبلها كما في المثال الأول، وإذا جاءت معها الواو، فالواو عاطفة، وهي مقحمة بين حرف العطف والمعطوف، وقد جوز المجمع هذا الأسلوب.(الوضع اللغوي، للمؤلف ص198-200).

*** وكذا يشيع الفصل بليس في أسلوب لا تخفى أصوله الأجنبية فيقال (تفرضه ليس مصالح مصر فقط بل مصالح الوطن أيضاً) و (يهدد ليس موازين الأمن القومي فحسب بل موازين الأمن

العالمي كذلك)..الخ وهو يحاكي الأسلوب الإنجليزي الذي يستخدم فيه (not...only...but...also)وكلمة (مصالح) فاعل وكلمة (موازين) مفعول به، و(ليس) في تقديري أداة للنفي فحسب، وما بعدها يعرب بحسب ما قبلها، وقد أجاز المجمع هذا الاستعمال. (الوضع اللغوي للمؤلف ص206).

د- الحذف

* ومما يفسر على الحذف قولهم : (مدن وقرى مصر) والتركيب الأصلي هو مدن مصر وقرى مصر، ثم حذف المضاف إليه. وليس هذا الاستعمال جديدا تماما وكثرته فحسب سمة من سمات العربية المحدثة (العربية الفصحى الحديثة ترجمة المؤلف ص200).

** ومن ذلك أيضا قولهم: (سوف يجد وسيلة أو أخرى) والمراد أو وسيلة من الوسائل ، وهو قريب مما يقال في الفصحى: رأيت رجلا ورجلا آخر. أي غيره. ومن ثم فالمنعوت محذوف أي (وسيلة أخرى)، ومع ذلك فالأسلوب أجنبي He will find one means or onother.

هـ- استعمالات خاصة لبعض الأسماء أو الأدوات

ولمثل هذه الاستعمالات تفسيرات عدة، على الحذف أو إلغاء العمل أو الفصل، ومن ذلك.

* نص النحاة على أن (أي) قد تكون شرطية نحو قوله تعالى (أيّا ما تدعو فله الأسماء الحسنى) أو استفهامية نحو (أيكم زادته هذه إيمانا) أو موصولة نحو (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد) أو دالة على الكمال فتقع صفة للنكرة نحو(زيد رجل أي رجل) ولكنها تجئ في اللغة المعاصرة على نحو لا يستقيم رده إلى معنى من معانيها السابقة، مثل : (لم يصدر عنهم أي تصريح) (اشتر أي كتاب) (لم تسفر وساطته عن أي نتائج).

ويعجبني تعليق العقاد على رافضي هذا الاستعمال، قال: إن (أي) هنا تقابل في الإنجليزية كلمة (any) وإن الصحفيين قد أضافوا معنى هذه الكلمة إليها، ولو لم يفعلوا لبقي مقابلها ناقصا في العربية، وليس من واجبنا أن نترك لغتنا عاجزة عما تدل عليه اللغات الحية.

وقد تبارى المجمعيون في تسويغ هذا الاستعمال وفي تقريبه من الفصحى حتى نال رضا مؤتمر المجمع وأقر استعماله(كتاب في أصول اللغة ج2ص199-208).

** لحتى في العربية الفصحى مواقع، فقد تكون جارة مثل (حتى مطلع الفجر) وعاطفة (يموت الناس حتى الأنبياء) وابتدائية نحو (فواعجباً حتى كليب تسبنى)، ولكنها تجئ في العربية المعاصرة في موقع جديد لم تذكره كتب النحو، ومن أمثلتها: (لم يحضر المؤتمر حتى المنظمون) و(لم يقرأ حتى الصحيفة) و(لم يسافر في الإجازة حتى إلى القرية). ففي الأمثلة السابقة تجئ (حتى) وبعدها ما يصلح أن يكون فاعلا كالمثال الأول، وأن يكون مفعولا كالمثال الثاني، وأن يكون مجرورا كالمثال الثالث، وليس في الكلام ما يردها إلى موقع من مواقعها في

الفصحى،فليست جارة أو عاطفة أو ابتدائية إلا بتأويلات بعيدة.

وفي تقديري أن هذا الاستعمال أثر من آثار الترجمة، فهي تشبه استعمال even، ففي الإنجليزية يقال: He never open even letter وهو ما ترجمته: لم يفتح حتى الخطاب. وقد رأيت في تسويغ هذا الاستعمال الشائع أن تكون (حتى) حرفا للغاية لا ينبني على وجوده أثر إعرابي فيما بعده، ومن ثم يتعلق ما بعدها بما قبلها.

وقد لقي تجويز هذا الاستعمال معارضة شديدة من بعض المجمعيين، بيد أن المجمع في النهاية جوزه على أن تكون (حتى) عاطفة والمعطوف عليه محذوف مفهوم من المقام.(في أصول اللغة ج3 ص146، 148).

4-2-2 ظواهر الجملة الكبرى

نعني بالجملة الكبرى الجملة التي تتألف من جملتين صغريين، ولها شكلان الأول يتألف من تركيب مستقل وآخر مستقل كقولهم: الهدم سهل والبناء صعب، ويربط التركيبين ما يعرف بحروف العطف.

والثاني يتألف من تركيب مستقل وآخر غير مستقل نحو: جلس الرجل وهو يغالب النوم، ويربط التركيبين روابط عدة منها واو الحال وقد وأدوات الشرط، والفاء واللام، والضمير، وقد يكون الرابط سياقيا فحسب.

وفي العربية المعاصرة استعمالات كثيرة، بعضها يخالف المشهور من أقوال النحاة في قواعد التركيب والربط، وبعضها يعد تجديدا في بناء الجملة وفي طريقة الربط بين عناصرها.

أ-الشكل الأول:تركيب مستقل+تركيب مستقل

الاتجاه العام في العربية المعاصرة في العطف بين التراكيب المستقلة هو عطف التراكيب المتماثلة في الشكل والجهة والزمن، وثمة أحوال تخالف ذلك، ولكنها محكومة بضوابط، ولا تتحمل هذه الأوراق تفصيل القول في هذه الأحوال، ونكتفي ببعض صور العطف التي استحدثتها العربية المعاصرة.

* تجيء واو العطف متوسطة بين (لم) و(لن) نحو: (الصورة لم ولن تفارق الذهن). وبعطف (لن) على (لم) يعبر عن الزمن المستمر من الماضي إلى المستقبل، وهي الدلالة التي تتحقق بالجمع بين (لم) وهي لنفي الماضي و(لن) وهي لنفي المستقبل.

وتجيء أيضاً متوسطة بين (لا) و(لن) نحو: الموقف لا ولن يغير الرأي، وبعطف (لن) على (لا) يعبر عن الزمن المستمر من الحال إلى المستقبل، وهي الدلالة التي تتحقق بالجمع بين (لا) و(لن).

ومبلغ علمي أن الجمع بين (لم) و(لن) وبين (لا) و(لن) على النحو السابق من المحدثات فلم أعهده فيما قرأت، وهو فيما يبدو لي من آثار اللغات الأجنبية، ففي الإنجليزية مثلا يقال:

I don't and will not write to him

ويقال في ترجمته: لا ولن أكتب إليه.

ويقال أيضاً: **He does n't and will not write to him**

ويقال في ترجمته: لا ولن يكتب إليه.

وعطف الحرف على حرف ليس معروفا في العربية، وفي تقديري أن العطف في المثالين المتقدمين من عطف جملة على جملة، فالجملة الأولى (الصورة لم ولن تفارق الذهن) مختزلة من جملة أخرى هي (الصورة لم تفارق الذهن والصورة لن تفارق الذهن) ثم حذف من الجملة الثانية العناصر الموجودة في الجملة الأولى، ويبقى بعد الحذف العاطف وحرف النفي (لن).

وقد سوغ المجمع هاتين الصورتين على أنهما من تنازع العاملين معمولا واحدا مع السعة في تطبيق القاعدة على الحروف.(في أصول اللغة ج3، ص156، والوضع اللغوي للمؤلف ص183-185).

ب- الشكل الثاني: تركيب مستقبل+ تركيب غير مستقل

1- الواقع حالا

يرتبط التركيب غير المستقل بأحد العناصر اللغوية التي يتألف منها التركيب المستقل، ولهذا فهو تركيب متضمن، بمعنى أنه جزء من تركيب أكبر، وعلى سبيل التوضيح يشغل التركيب غير المستقل في مثالنا السابق (وهو يغالب النوم) موقع الحال من الكلمة (الرجل) في التركيب المستقل (دخل الرجل) وهو ما يعرف بصاحب الحال في النحو العربي. والرابط بينهما هو: واو الحال والضمير.

ومن الصور التي تشيع في العربية المعاصرة ويعدها بعض النقاد مخالفة للمشهور من أقوال النحاة:

* مجيء واو الحال مقترنة بالفعل المضارع المنفي بـ(لا) أو(ما) أو(ليس) نحو (تمر الأيام ولا تشيب له شعرة) والمشهور أن يجئ ذلك بغير الواو.

** مجيء الواو مقترنة بالفعل الماضي التالي لـ(إلا) نحو: (مالقيته إلا وأكرمني) والمشهور أن يجئ ذلك بغير الواو.

ومن الأنماط التركيبية الشائعة التي استحدثتها العربية المعاصرة:

* النمط الذي يتقدم فيه التركيب الحالي نحو: (وهو يغادر المكان قرأ الفاتحة).

وهو تركيب محول- في تقديري- عن التركيب الأصل (قرأ الفاتحة وهو يغادر المكان).

** النمط الذي يجئ فيه التركيب الحالي تاليا (لاسيما) نحو: سأقبل الدعوة لا سيما والموعد مناسب.

*** النط الذي يأتي فيه التركيب الحالي متقدما مسبوقا بالأداة(أمّا) نحو (أما وقد قبلت دعوتي فأرجو أن تحضر مبكرا) وفي تقديري أن هذه الصورة محولة عن الشكل المألوف: (أرجو أن تحضر مبكرا وقد قبلت دعوتي).

2- الواقع مفعولا به

ولهذا التركيب أنماط عديدة من أهمها بالنسبة لهدفنا من هذا الأوراق:

النمط الأول: فعل من أفعال القلوب+ أداة من أدوات الاستفهام.

ومن أمثلته:

لا أدري أأنا فرحانة أم حزينة.

لست أعلم كيف أبدأ الحديث.

كيف تعرف من يكون أبوها.

إنني لأعجب ما الدور الذي قام به.

وأمثلة هذا النمط تجيء على المشهور من كلام العرب.

النمط الثاني: فعل من أفعال القلوب+إن الشرطية أو إذا الظرفية المحولة إلى الشرط.

ومن أمثلته:

لا تعرف إن كان القارب يتحرك أم لا

لا أدري إذا كانت لدينا خطة محددة في معالجة المشكلة

وقد تجيء (ما) قبل إذا نحو:

سوف نرى ما إذا كان الحصار سيجدي أم لا

وقد تسبق (ما) بحرف جر نحو:

يتساءل عما إذا كان قد اشترك في المسابقة.

وهذا النمط يشيع في العربية المعاصرة، وقد تعرض له كثير من النقاد ووسموه بالعجمة، ثم جاء المجمع فأعاد البحث فيه مؤخراً، ورأت لجنة الألفاظ أنه جائز ولا حرج من استعماله، ولكن قرارها لم يحظ بموافقة مؤتمر المجمع (كتاب الألفاظ والأساليب ج1، ص123،124).

وهذا النمط من الاستعمال من آثار الترجمة وكأن الكتاب جاءوا بإن أو إذا لتكون مرادفة لـ Whether، (العربية الفصحى الحديثة ص248-250).

3- الواقع مجرورا بالحرف

وله أنماط متعددة يعنينا منها هنا التراكيب التي تتميز بها العربية الفصحى عن الفصحى القديمة، ومن ذلك التراكيب التي يجيء فيها التركيب غير المستقل مجرورا باللام أو حتى أو كي ومتصدرا الجملة الكبرى مثل:

لأن الكاتب صديقي فأنا أصدقه.

حتى نرى من القادم فلنختبئ خلف هذه الأشجار.

كي تعرف سرعة الأرض فلا بد أن تنسبها إلى شيء يتحرك.

وهذه التراكيب هي تحوير لتراكيب مماثلة في الفصحى القديمة يتأخر فيها الجار والمجرور، فالمعروف في العربية أن يقال: (أنا أصدقه لأن الكاتب صديقي)، (لنختبئ خلف هذه الأشجار حتى نرى من القادم) و (لابد أن ننسب الأرض إلى شيء يتحرك كي نعرف سرعتها). وشبيه بهذا أيضا قولهم: بما أن البترول عصب الطاقة فعلينا أن نحسن استخدامه.

على الرغم من أن العالم الثالث يضم أغلبية سكان العالم فإنه لا يملك الثروة الحقيقية.

على الرغم من أن الهدوء يسود منطقة الشرق الأوسط إلا أن الموقف قد يصبح خطيراً.

وهي أيضاً تراكيب معدولة عن (علينا أن نحسن استخدام البترول لأنه عصب الطاقة) و (إن العالم الثالث لا يملك الثروة الحقيقية على الرغم من أنه يضم أغلبية سكان العالم) و (إن الموقف قد يصبح خطيرا على الرغم من أن الهدوء يسود منطقة الشرق

الأوسط).

وهذه التراكيب الجديدة تكسب العربية المعاصرة مرونة في التعبير وملاءمة لما يناظرهـــا في اللغـــات الأجنبية.

4- الواقع شرطاً

تتألف الجملة الشرطية من نمطين:

الأول:أداة الشرط+تركيب الشرط+تركيب الجواب.

إن ارتاب فسيأخذ بالأحوط

الثاني:تركيب الجواب+أداة الشرط +تركيب الشرط

سوف تكون الخسائر موجعة إن تدهور الموقف عسكريا.

وأدوات الشرط قسمان، الأول: أدوات الشـــرط الأصلية وهي إن ولو ولولا، والثاني: أدوات الشرط المحولة، وهي أيضا قســـمان الأول: أدوات الشـــرط المحولة عن الظرفيّة الزمانية مثل: إذا وعندما وحينمـــا ولما وكلما، أو المكانية مثل: حيثما وأينمـــا وأنّـــى، والثاني: أدوات الشرط المحولة عن غير الظرفية مثـــل (من) و (ما).

وقد تنوع استخدام الجملة الشرطية تنوعا كبيراً، وتنوع معها استخدام أدوات الشرط والروابط الـــتي تربط الشرط بالجواب، ومن أهم التطـــورات الـــتي حدثت في العربية المعاصرة.

1-اقتران جواب (إن)و(إذا)و(مهما)باللام و(إلا).

2- اقتران جواب الشرط بلو بـــ (الفاء).

3- اقتران ما يمكن أن يكون جوابا لـــ (عندمـــا) و(حينما) و(كلما) بالفاء وقد تطور استخدام هـــذه الظروف تطورا مثيرا، فأشبه استخدام الظروف المحولة إلى الشرطية مثل (إذا) وتنوعت جملة الشرط معهـــا فجاء معها الماضي والمضارع، وتنوعت جملة الجواب معها مقترنة بالفاء في أحوالها المعروفـــة أو بغيرهـــا فثريت من ثم الجملة الشرطية بعديد من الأشـــكال الملائمة للأزمنة المتعددة.

4-استخدام (فيما) في جملة تشبه الجملـــة الـــتي تستخدم فيها (بينما) شكلا ومعنى.

5- استخدام (مادام) كما تستخدم (إذا)الشرطية.

6- استخدام (طالما) كما تســـتخدم (مـــادام) شكلا ومعنى.

5- الواقع مجرورا بالإضافة

ولهذا التركيب أنماط عديدة يعنينا منها هنا النـــمط الذي يكون فيه التركيب غـــير المســـتقل في موقـــع المضاف إليه من كلمة ظرفية في التركيب المستقل نحو (لم يجد أحداً في البيت حين استيقظ) ومـــن أهـــم ظواهر الاستعمال المحدث لهذه الظروف.

1- التوسع في استخدام (إذ) للتعليل. نحو (نحـــن سعداء إذ نعاصر هذا الحدث).

2- التوسع في استخدام (حيث) للتعليل نحو (مـــا كان ينبغي تعيينه في هذه الوظيفة حيث لا يصلح لها) وللزمان نحو (ينتهي عمله عند الفجر حيث يصلـــي وينام إلى الضحى).

3- استخدام (حين) للتعليق دون (ما) ومجيئها في صدر جملتها نحو (حين يشيخ منهم جيل يحل محلـــه جيل جديد).

4- مجيء (يوم) متصدرة جملتها واقتران جوابهـــا بالفاء أحيانا، نحو (يوم احتل الإنجليز مصـــر اختـــل ميزان القوى).

5- مجيء (مذ) أو (منذ) في صدر الجملة واقتران التركيب المستقل بالواو، نحو (مذ تزوج فاطمـــة لم يهدأ له بال) و(منذ بدأت الحرب والقتال دائر).

ومن الأساليب الشائعة في العربية المعاصرة الـــتي تثري التركيب العربي بألوان متعددة مـــن المعـــاني الأساليب الآتية:

1- مثلما، نحو (مثلما لانجاح لخطة بغير زمن فلا نجاح لها بغير تمويل).

2- كما أن، نحو (كما أن الطيبات للطيبين فإن مسرح العبث للعبثيين).

3- مع أن (مع أنني غير واثق منه إلا أنني تعاقدت معه).

4- بمجرد أن (بمجرد أن رد باب حجرته ضمـــني إلى صدره).

5- بقدر ما (بقدر ما كان غنيا بأمواله كان فقيرا في نفسه وعقله)

وبعد، فليس القصد من هذا العرض أن تســـتوفى أشكال التعبير الجملي المحدث في العربية المعاصرة بل كان القصد فحسب التمثيل بما يكفي على تقدير ما حدث فيها من تغيير جعلها وافية بمطالب التعبير عن ثقافة العصر وعلومه وشهد لها بمرونه واضحة وتوسع محمود.